الحرية والعبودية

التقت ذات يوم العبودية الشيخة بالحرية الطفلة . فابتسمت العبودية تحت جبهة كالحة وعينين مزمهرتين ، وقطبت الحرية على محيا وضاح . وأمسكت تلك بيمين هذه فنفرت الحرية قائلة : — دعيني ما شأنك بي ؟

فقالت العبودية : إني أحرسك من أي شر

فقالت الحرية : — زه . زه . أحارسني أنت أم آسرتي ؟ إني أريد القمر وأنت تمنعينني عنه أو تحببينه عني

فقهقهت العبودية وقالت . ويحك أنا أمنعه عنك أم عجزك يمنعه ؟ أريدي ما تستطيعينه إن كان بيدك

— أريد أن أداعب هذا الحمل في الزرع

— لا أسمح لك ، لأن في المزارع ثعباناً يلدغك فتموتين

— أولا يلدغ الثعبان الحمل

— الحمل يعرف الثعبان فيهرب منه . وأما أنت فلا تعرفينه ، وقد تحببينه إليه وتلينين عليه ليرتد عليك ويلدغك

وقحمت الحرية الطفلة الى المرجة بين الزرع فما لبثت أن خمشتها الأشواك . فارتدت والدم يترف من ساقها . وأخذت إلى البيت . وضمدت وعصبت ساقها .

ثم انتابتها حمى . وأمر الطبيب أن تعطى دواء . فأبته وولولت ونفرت . فأبرت العبودية تنصح لها أن لابد عن أن تجرع الدواء وإلا ، فتموت . فنفرت ولعنت العبودية والطبيب والناس كلهم لأنهم يضيقون عليها الخناق . وأخيراً قبضت العبودية عليها وجرعتها الدواء رغم أنفها . فسخطت وقالت : لعنة الله عليك . ما الذي جاء بك لكي تقيدني هكذا ، ثم تقولين إنك حارسة لي ؟ ما إسمك ؟

— إسمي « رمز الاستعباد » — تبا لهذا الإسم الشنيع ولعنة الله على هذا الجسم الفظيع . من أين جئت أيها الرمز المريع

— جئت معك من حيث جئت أيها الحر يا رمز الحرية

— تبًّا لك . لم أرك ، ولم أصطحبك

— لا تستغني عني . إني الى جنبك أينما كنت

— استغني عنك ، إني حر

— لستَ حرًّا . لقد جئت الى الوجود رغم أنفك . لو خُيِّرت هل كنت تأتي ؟

— بالطبع آتي . ولمَ لا ؟

— وبالطبع أنا آتي معك . إني موجود قبل أن توجد أنت . نحن توأمان

— ولكني لا أرى لي حاجة بك . ولا وظيفة لك معي

— لي وظيفة أهم من وظيفتك . أنت تخطيء وأنا أصحح خطاءك . أنت تتهوَّر وأنا أتفادى تهوُّرك . وأنت تشرد وأنا أعدل طريقك . أنت تضل وأنا أردك إلى الصراط المستقيم

* * *

وأرسل رمز الحرية إلى المدرسة ، فكان تارةً يتمنع ورمز الاستعباد يرغمه ، وأخيراً قال إني أكره المعلم لأنه يلزمني أن أحفظ تاريخ فرنسا وجغرافية فرنسا . فقالي أنا وفرنسا . لو كان تاريخ مصر وبابل لربما احتملته

وكان رمز الحرية يذاكر في البيت وإذا راديو الجيران يصخب في أذنيه وأبواق السيارات وعجلاتها تدوّي في دماغه . فخرج إلى الشرفة ونادى : « ياهو ، ياجيران » فخرج إليه جارٌ من شرفته : ما الخبر

فأجابه رمز الحرية : ألا أقفلوا الراديو حالاً ، لأني أذاكر والصوت يصمُّ تفكيري

فأجاب الجار : لا نقفله . نحن أحرار في بيتنا

فما كان من صاحبنا رمز الحرية إلاَّ أن دخل الى مطبخه ، وأتى بصفيحة بترول فارغة ومدقّة الهاون وعاد الى الشرفة ، وجعل يقرع الصفيحة قرعاً عنيفاً . ودوّى القرع في الشارع حتى ملأ بيوت الجيران . فخرج السكان يتساءلون ما الخبر . ولما رأوه جعلوا يتغضبون ويسخطون ويتهزءون لكي يكفّ عن القرع فقال : إني حرٌّ في بيتي

ثمَّ جاءه رمز الاستعباد وجرَّه إلى غرفته قائلاً : ما هذا الفعل الجنوني الشنيع ؟

قال أما أنا حرٌّ في منزلي كما هم أحرار في منازلهم . هذه صفيحتي تضج كما أن الراديو عندهم يصخب

ثمَّ ملأ الصفيحة ماء وجعل يرش الماء على العربات المارَّة في الشارع . فعمد إليه بعض الخوذية . فأوصد بابه دونهم . فضوا ثمَّ عادوا إليه ومعهم بعض الشرطة ليأخذوه الى دار الشحنة . فتمنع . ولكن قوَّته دون قوة الحكومة . وساقوه الى أمام المأمور

أو بالأحرى الأمر . واستجوبه هذا . فكانت أجوبته أنه فعل فعلته لكي يحرم المركبات أن تمر من تحت داره . لأنه لا يطيق دويها المزعج وزميرها المفزع . فقال له المأمور « الشارع ملك الجمهور . والناس أحرار أن يمروا فيه كما يشاؤون . فإن كان دوي المركبات يزعجك فانقل دارك الى حيث لا مركبات »

ثم استدعاه القضاء الى محكمة المخالفات . وهناك لم ينكر أنه كان يرش الماء من شرفته على المركبات . وذكر السبب . فلم يبال القاضي بأسبابه وحكم عليه بغرامة ٥٠ قرشاً . فاعترض وصاحك . فضاعف القاضي الغرامة . وندد بالمحكمة فزاد القاضي الغرامة أضعافاً

وأخيراً جرّ رمز الاستعباد إلى خارج المحكمة قائلاً له: صمتاً وإلا حكمت المحكمة بالسجن .

فقال رمز الحرية : هذا ظلم يا ناس . أما أنا حرٌ في بيتي وأن أزجر من يزعجني ؟

فقال رمز الاستعباد : لا . القانون يقيد حريتك

— تبّاً لهذا القانون الذي يقيد الحريات ويسمح للناس أن يزعجوا آخرين

— القانون لكل إنسان ولكي يحمي كل إنسان . والشارع لكل الناس . فليس لك أن تمنع أحداً من المرور فيه .

— ولكن ليس لمن يمرّ في الشارع أن يزعج السكان .

— ارفع ظلامتك الى الحكومة .

— الحكومة عالمة بازعاج المركبات لسكان الشارع . فلماذا لا تمنع هذا الازعاج ؟

— الحكومة لا يمكنها أن تفعل غير ما هي فاعلة . فإذا كنت لا تطيق ضوضاء الشارع فانقل دارك الى الصحراء حيث لا ضوضاء . هذه سنة الاجتماع . لا حرية إلا بأزائها عبودية . فان لم تعجبك هذه السنة فاخرج من هذا المجتمع .

وبئس هذا المجتمع الذي يزعج أهله ! أليست لك حيلة فيه ؟ أين سلطانك يأمر الناس أن يكفوا عن الضجيج والقرقعة . ألا تأمر إلا علي وأنا الساكن الهادىء . لماذا أيها المستعبدون لا تستنبطون اجتماعاً بلا ازعاج

— لا وسيلة لاجتماع بلا ازعاج إلا إذا كان أهله حجارة صُمّ لا تتحرك . ما دام في الوجود أجسام تتحرك فلا محيص من الاصطدام . امنع المركبات ان تمرّ في الشارع وامنع السابلة أن تسير في الطريق تقف الحركة ويصبح المجتمع جامداً وأنت تسمع فيه حصاة . هناك طريقة واحدة لتخفيف الضوضاء عن دماغك وهي أن تفرش مصلحة التنظيم بطن الشارع ببساط من الكوتشوك ، أو ان تحدّد مواعيد معينة لاستعمال الراديو ومرور المركبات في حين لا تكون أنت مذاكراً ولا نائماً . واذا رأيت ان لا بدّ من ترتيب الأوقات

للاعمال وتكل حركة في المجتمع أصبح الناس كالآلات لا يعملون الا حيث يسمح لهم نظامك أن يعملوا ، ويلهون حيث يسمح لهم أن يلهوا ، وينامون حين يسمح لهم أن يناموا ، فكأنهم عبيد لارادتك . والحقيقة أن الناس في هذا العصر مقيدون بأنظمة تجعلهم بلا حرية كالجرد . المجتمع حركة صاخبة يجب أن تسير معه في صخبه وضوضائه وان تقنع بالنعيم القليل الذي لك فيه وبزهيد مسراته ويسير الراحة فيه .

***

ثم جاء شرطي يدعوه الى دار التجنيد (القرعة) فقال له رمز الاستعباد : أجل يجب أن تُجنَّد لكي تدافع عن الدولة إذا وقعت تحت خطر حرب مع دولة أخرى غازية بلادك .

— زه زه . لا أريد أن أحارب . لا أريد أن أقتل أحداً لأني لا أريد أن يقتلني أحد . لقد سُبكت الآية الذهبية في دماغي : « لا تعمل بالناس ما لا تريد أن يفعلوا بك » هذه آية الحق والعدالة والصواب . وبالحرس على هذه الآية يستتب السلام على الارض .

— إذا لم تحارب وتقتل خصمك يحاربك خصمك ويقتلك . يجب أن تقتل قبل أن تقتل

— تبًّا لك من ناصح شرير . ليس لي خصم أخاف أن يقتلني . انما أنت خلق لي خصماً الآن .

— ليس لك خصم . ولكن لامتك خصوم وأعداء . والأمة لا يمكنها أن تتقي شر الاعداء الا بالاستعداد لمحاربتهم . ولذلك تجند الحكومة جنوداً وتسلحهم . وأنت واحد من الأمة فلا بدَّ أن تتجند لكي تحارب إذا شبت الحرب .

— لا أتجند ولا أعرض نفسي للقتل

— إذا تجنبت أن يقتلك العدو قتلتك حكومة أمتك لانها تحسب تخاذلك أو فرارك من الجندية خيانة عظمى تستوجب الموت

— تبًّا لها من أمة شريرة قاتلة . لماذا تريد أمتي أن تقاتل ؟

— لأنَّ لها عدوًّا يريد أن يغزوها ويستعبدها ، فتجند شبابها لكي يدافعوا عنها

— ولكن لماذا هذا العدو يريد أن يغزو بلادي لكي يستعبدها . ألا يؤمن بالآية الذهبية

— يؤمن بها . ولكنه يظن أن أمتنا ماجرة عن أن تدفعه عنها فيحاول أن يغزو بلادنا ويملكها ويتم يستعبدنا . فإذا لم نستعد لمقابلته بقوة أقوى من قوته كان هو الرابح ونحن الخاسرون . لذلك نحن المؤمنون بالآية الذهبية يجب أن نفعل بغيرنا ما يريد غيرنا أن يفعله بنا . فآيتك الذهبية ماشية على الجنبين في كلا الحالين . حاربت أو لم تحارب .

— ولكن لماذا هذا العدو معاديناويريد أن يملك بلادنا ويستعبدنا ؟ ألا يعرف الآية الذهبية

— يعرفها جيداً . ولكن إذا كان يعتقد أننا لا نقدر أن نفعل به ما يريد أن يفعله بنا فلا يباني بالآية الذهبية ، لذلك يجب أن نضرب بالآية الذهبية عرض الحائط ، ثم نجند .

— عجباً . ألا يفهم هذا العدو العدل والحق ؟

— يفهمهما جيداً . ولكنه يؤثر الغنيمة على الحق والعدل . فيذبح العدل والحق لكي يأكل لحمها ويلتحف جلديهما ويكتسي صوفهما

— عجباً . عجباً كيف يفعل هذا ؟ أما هو انسان ؟

— هذا هو الانسان يا عزيزي . إنسان ضار . لا يزال حيواناً في طبعه . وما كان تفوقه على ابن عمه الحيوان بالذكاء إلا ليزيده الذكاء ضراوة

— عجباً . لماذا لا يزال حيواناً بطبعه الضاري وقد ارتقى جداً من الحيوان ؟

— لأنه لا يزال ينازع أخاه الإنسان الرزق والبقاء

— الرزق ؟ الرزق في هذا الجرم الأرضي وفر جداً . يكفي عشرة أضعاف سكانه . إن الكرة الأرضية تسع عشرة أضعاف سكانها الحاليين . فيها الآن ٢٥٠٠ الف مليون نسمة وهي تسع ٢٥٠٠٠ الف مليون . وفيها رزق لهذا العدد ولأكثر منه . ألق نظرة على الخارطة تجد أفريقيا لا يزال سكانها لا يزيدون على مئة مليون أو ١٥٠ مليوناً وأراضيها يمكن أن تموّن عشرة أضعاف هذا العدد اذا استعمرت . تجد في أوستراليا سبعة ملايين وهي تسع وتغذي سبع مئة مليون ، وفي نيوزيلاندا مليون ونصف وهي تسع وتغذي ١٥٠ مليوناً . قس على هذه أميركا الجنوبية والشمالية . وسيبيريا . وإذا شئت فالاسكا والقطبين وبلاد الاسكيمو وغيرها . كلها تصلح للعمران بفضل العلم الحديث الذي يوفر الدفء في بلاد الزمهرير والبرودة في بلاد الهجير . وحيث لا حيوان فهناك حيتان وكلها تنفع الانسان . العلم الذي يستغل البرّ ويزرع الصخر ويجني الرزق من الهواء يزرع البحر أيضاً ويحصده . والرزق من خضرة وفاكهة وحَبّ وغلة ولحم وطير وسمك لا يحتاج من عناصر الطبيعة إلا إلى أربعة : أوكسيجن وهيدروجن وكربون وفيتروجن وهي موجودة في الهواء والماء . وبعض الأملاح موجودة في التراب ، والعلم يستطيع أن يصنع من هذه المواد الإنسان والحيوان والنبات . العلم يستطيع أن يخلق بشراً من جبل المقطم أو من جبل لبنان . يمكن أن يحوّل القارات الخمس كلها إلى بشر . إذا كان هذا الإنسان الضاري يثوب إلى رشده ويستخدم قواه الجسدية والعقلية لتحصيل الرزق . يحصّل رزقه وافراً بلا عناء ولا شقاء . فلماذا هذا الإقتتال الذي يفتك بالأجيال ويعذب الرجال والنساء والأطفال .

فقال رمز الاستعباد : — هذا هو الإنسان الآثم يا عزيزي . يريد الهناء بلا عناء

والبقاء بلا شقاء ، يختطف رغيفه من فم غيره . والرغيف لا يأتي الى الوجود إلا إذا تعب الواحد بتحجيبه معها كان التعب قليلاً . ولكن في الناس من يريد أن يأكل رغيفاً من غير أن يتعب ، فيختلس رغيف غيره . والناس ناهب ينعم ومنهوب يشقى . وكذلك الأمم : أمة تكدح ، وأخرى تتمتع على حساب كدح غيرها . وهكذا أصبح العالم أمماً مستعمرة وأمماً تشقى في انتاج ثمرات غيرها — هذا النزاع هو الحرب التي تريد أن تفر منها

فقال رمز الحرية : لو اقتصر الأمر على ما تقول ياسيدي المستعمد لقلنا إن سبب الحرب التنازع في تنازع البقاء فقط . والحقيقة انه أمة طماعة تريد أن تتمتع على حساب شقاء أمة أخرى . وربما كان لهذا التنازع مبرر في شرع الأنانية وحب الذات . ولكني لا أرى بعد التنازع بين الأمم إلا حماقة وغباوة وجنوناً مطبقاً لأن الرزق وفير في الدنيا يكفي الناس والقوافل ولا يحتاج إلا لتقليل عناء لكي يحصلاه . ويلوح لي أن هذا الإنسان قد بدأ أول أمره يشعر بأن الرغم من وفرة الرزق في الدنيا فلا يزال فريق من الناس يشكون الجوع والفاقة . لا يشعذون القرش فقط بل يشعذون العدل أيضاً . والحاجة إلى العدل أصبحت شديدة ومع ذلك فلايين من العمال عاطلون . فلماذا ؟؟؟ أليس لأن هذا الإنسان قد اشتد به الطمع الى أن حرم أخاه الإنسان حق العمل لأن ما يطمع به من الكسب لم يعد يأتيه من عمل العامل فأوصد العمل في وجه العامل . والذي أراه أن سبب هذا العسف هو أن النظام الإقتصادي المالي أرعن أهوج لم يعد صالحاً للحياة الاجتماعية الحالية البتة . فالعملات صارت سمة أي تتعذر مقايضتها بين أمة وأمة . وسبل السلع والمنتجات مقفلة هنا وهناك . والحركة التجارية بالإجمال مشلولة ، بالتالي انشلت الصناعة معها لما بين الحركتين من قرابة . والعالم الذي سار في عصر العلم والاختراع جديراً بالراحة والهناء أصبح يعاني فاقة وشقاء أليس عجيباً أن يكون في هذا العصر أناس يجوعون ويشقون والدنيا بألف خير . فأنا لا أرى هذا الانسان الذي يعدونه فوق الحيوان الأعجم عقلاً وذكاء إلا حيواناً مجنوناً . ينتحر بلا سبب يوجب الانتحار فأنا لا أريد أن أنتحر . لا أريد أن أحارب . لا أريد أن أتمنى . عني يا هذا

فقهقه رمز الاستعباد وقال : أجل قل كلامك حق وصواب . ولكنك أنت الآن في عالم كل أمة مجانين . فإن لم تجن معهم تترك .

— لا أمر الحياة في عالم كهذا شر من الهلاك . والموت فيه خير من حياة الجنون . الى الملتقى .

فؤاد الخراز